مطلق عبد الخالق (شاعر الوطن والإنسانية) 1910-1937

صلاح محاجنة

تلخيص:

يعتبر الشاعر عبد الخالق الذي ولد في مدينة الناصرة من الشعراء الذين شغلوا الناس وملأوا الدنيا بشعرهم وفكرهم، وثراء ثقافتهم، فشعره ينم عن عبقرية فذة رغم أنه لم يمهله القدر لتحقيق أهدافه ومراميه، فنظم شعرا للوطن الذي أحبه وترعرع على ثراه وبين ربوعه، كما غنى للإنسان البسيط وحياه على كده وجهده، ولم ينس رموز شعبه الذين أفرد لهم قصائد كاملة. شعره عذب من السهل الممتنع، يروق للقارئ الإطلاع عليه وحفظه ليبقى خالدا في صدور الرجال. ولد مطلق عبد الخالق في مدينة الناصرة في سنة 1910 في زمن عصفت به رياح التغيير والتمرد، فكان شاعرنا قائد هذا التيار الذي نادى بالوقوف بعناد أمام الأجنبي المعتدي، فألهب مشاعر الناس وحرضهم، ووقف معهم ودافع عن قضاياهم.

توطئة

الكلمة الشعرية هي جسم حي نابض، ذات حرارة لاسعة، تلسع لسان منشدها، بعيدة كل البعد عن البرودة التي تثقل على لسان قارئها، فهي تسعف الشاعر بسكب عصارة مشاعره وأفكاره بشكل موحٍ ومؤثر، وتترك بصمات وعلامات بارزة على شعاب قلب القارئ أو المنشد وعلى صفحات عقله وذهنه، أما حروف هذه الكلمة الشعرية المتسمة بسمات التألق الروحي، والسمو الفكري والخيالي، فلها دور رئسي في الدلالات والإيحاءات والظلالات التي تمليه على المنشد والسامع. فهناك حروف ناعمة سلسة عذبة تسري سريان الدم في الشريان وتريح بال الإنسان وتنقله نقله خاصة إلى عالم آخر يحلق في أجوائه ويركن إلى السكينة، وهناك حروف خشنة الملمس ذهنياً، نابيه للسمع، تنفر القارئ والسامع، فالشاعر المجيد الذي يختار حروف كلماته بعناية فائقة، ويبذل في سبيل ذلك كل جهد شاعري وذهني حتى يقدم للقارئ مادة دسمه يسهل عليه مصاحبتها ومداعبتها.

إن للكلمة الشعرية الصادقة حرارة ملتهبة تنبعث من خلالها، فتلفح أحاسيس القارئ وتشحن عواطفه، وتهز أعماقه فتعتمل في النفس خلجات تفضي إلى معادله متكاملة من التفاعل الكيفي، مثيرة نسيجا من الارتياح والرضي الكفيلين بضمان التحام نفسية القارئ مع مدلول الكلمة وجوهرها. فالشاعر أكثر ما يركز عليه هو مفعول الكلمة وموقعها في القصيدة، لتأخذ موقعها في

النفس البشرية عندما يتم اللقاء بين هذه ألكلمه بكل ما فيها من حروف وأصوات وموسيقى داخليه وبين القارئ، لينقل هذا المزيج المتداخل إلى الفكر ومن ثم يصل بخيوطه النورانية إلى القلب ليتم هناك التفاعل.

فشاعرنا مطلق عبد الخالق، حباه الله بملكة نظم الشعر واختياره كلمات وتعابير وصور شعرية نابضة، ذات حرارة عالية تلسع الألسن، فما علينا إلا أن نقرا شعره برويه وتأن ونسبر غور قصائده، ونحلق في عالم خياله لنجلو كنه أفكاره ومعانيه رغم بساطتها وعفويتها وبعدها عن التعقيد والافتعال، ثم قربها من الانفعال والتحرر والانطلاق.

مقدمة

كان مطلق عبد الخالق شاعرا وأديبا شابا كثير الحماسة والتفكير، وهو متجدد في آرائه الفلسفية، وإشعاره الاجتماعية. كان شاعرا كثيرا ما يتحدث عن تفاهة الحياة ولذة الضجعة الأخيرة، وكان يتحدث عن الدار الفانية.

لقد تمنى دائما الموت فنال بذلك بغيته وهو لا يزال في مقتبل العمر وشرخ الصبا وعنفوان الشباب. كان يردد لأحد أصدقائه قائلا:" لا تبكي علي يا أخي ساعة أموت ولا تجزع لأني في دار البقاء، أولى بالحزن عليك مني، وأنت في دار الفناء بالبكاء علي"(1).

كان متشائما يمقت الحياة ويعفها " بني الناس دنياكم جيفة، وليس على أرضكم ما يسر"(2)، ويشبه الحياة بجيفه نتنه:

وماذا تراها تكون الحياة لا غدو بها بائسا منكسر
بني الناس دنياكم جيفه وليس على أرضكم ما يسر

إن شعره خلق لا ليكون كلاما بديعا موزونا يهز الأبدان البالية الفانية هزا– يجعل الإنسان ساخرا هازئا من هذه الدنيا فحسب، بل لأنه يجعل الأرواح المسجونة في الأبدان طليقه حرة في العلا، تتذوق فيه وهي في سجن الدنيا لذة النعيم للدار الآخرة. قال أستاذه قسطندي أفندي قنازع " إن شاعريته خلقت معه، وانه كان شاعرا قبل أن تعلم القريض"(3). رحل الشاعر اثر حادث طرق، فأنقطع هنا النبع الفياض من العطاء، فأثر على الأدب والأدباء في البلاد. جمع إلى جانب أخلاقه الرفيعة كفاءة ممتازة في صناعة التحرير وأصاب نجاحا كبيرا في قرض الشعر، فقد

كانت قصائده من نوع السهل الممتنع كلها عذوبة ورقة ودقة وصف، وروحانية علوية تعلو عن مراتب البشر.

عاصر مطلق ثورة الـ36 ضد الاستعمار الإنجليزي فعاش قسوتها وشدة وطأتها على أبناء شعبه، فغنى لهم، وألهب مشاعرهم من خلال قصائده الوطنية العديدة.

1- الحياة الغامضة

لا نعرف الكثير عن حياة مطلق عبد الخالق الخاصة، فقد ولد في 9 تشرين الثاني عام 1910 في الحي الغربي أو (الميدان)، والده كان مختارا، محمد عبد الخالق، وهو من عائلة قديمة الجذور في مدينة الناصرة، كان شابا متساميا في حياته الخاصة(جريدة الدفاع)وحياته العامة، كان والداه يفخران به وبإنجازاته فأحبهما حبا جما ولكن كان حبه لأخيه صبحي عبد الخالق الذي كان معتقلا في سجن عكا اشد، فكان شديد البر بوالديه وبشقيقه (الدفاع)(4).

سيرته وسمعته وحياته كانت مثلا حيا للنقاء والنبل، تعلم مطلق في مدينة العلوم الأولية ثم التحق بكلية روضة المعارف في القدس الشريف وتخرج منها بعد ذلك, ثم إلى حيفا حيث أسس مجلة كشفيه مع عاطف نور الله وكانت افتتاحية عددها الأول في 6 تموز 1927. لقيت هذه المجلة رواجا كبيرا وإقبالا لدعمها من قبل التجار الذين أثروها بمقالاتهم الأدبية ومنهم حمدي الحسيني وعبد الله القلقيلي صاحب جريدة الصراط المستقيم والدكتور معين الماضي والدكتور رشدي التميمي وأكرم الخالدي ويونس شحادة صاحب مرآة الشرق.

كان معروفا في الناصرة لدي جميع شرائح المجتمع، وقف بجانبهم وقت المحن، فأعانهم ودافع عن قضاياهم لذلك كان لنبأ الحادث الأليم الذي أودى بحياته وقعه الشديد في الناصرة، فكل من سمع الخبر علا وجهه الوجوم والكآبة، فشارك في جنازته وأبنه وفود كثيرة تضم اشهر الشخصيات في المجتمع آنذاك، سأسوق أسماء كوكبه بارزة منهم: الأستاذ نجيب نصار صاحب الكرمل، والمحامي الأستاذ وديع البستاني، وعبد الرحمن رشيد الحاج إبراهيم مدير البنك العربي بحيفا، ووفد من طبريا على رأسه الأستاذ صدقي الطبري، ومن القدس الأستاذ شكري قطينه، من يافا الأستاذان شوكت حماد وعبد الهادي عرفان عن أسرة "الدفاع"، السيد يوسف سلوم عن ألصحافه، الأستاذ نديم بطحيش وعبد الرحمن الفاهوم من الناصرة عن أصدقاء الفقيد،

الدكتور يوسف هيكل، كلمة قنصل العراق في فلسطين الأستاذ كاظم الدجيلي، المحامي حنا نقاره عن رابطة الشبيبة العربية بحيفا، كلمة العلامة الأستاذ الشيخ اسعد الشقيري، كلمة الشاعر إبراهيم طوقان، قصيدة الشاعر أبو سلمى، فحزن على وفاته الشعب العربي بأسره أدباء، وصحفيين، وشعراء رجال فكر وسياسة، محامين وأصحاب مواقع حساسة في المجتمع:

أغمض الشاعر عينيه ونام فاستراح
نومه نوم سكون وسلام وارتياح
إذ نسي في نومه كل الأنام والكفاح (5)

هذا ما قاله شاعرنا الملهم، فبفقده فقدت الوطنية وطنيا مخلصا والأخلاق ركنا رفيعا والبلاد ابنا بارا والشعر قيثارة جميلة ذات صوت فنان بارع مجدد.

2– وفاته:

عثر بين أوراق المرحوم الأستاذ مطلق عبد الخالق التي وجدت في جيبه بعد حادث مصرعه، على ورقة صغيرة مقتطعه من دفتر صغير مكتوب عليها بخط يده ما يلي بالحرف الواحد:" مساء الخميس 23–9–37، أنا ألان في غرفة والساعة الخامسة والدقيقة 15، أفكر في مبهمات الحياة، وأقايس بين ما غبر وبين ما أنا عليه في ساعتي هذه وبين ما سيأتي. أيها القدر القاسي ترى ما تخبئ لي في القريب بين طياتك؟" (6)

وقع الحادث الأليم للمرحوم الأستاذ مطلق على هذا النحو بالحرف الواحد كما أوردته الصحف العربية: حيفا في 9 تشرين الثاني سنة 1937 حوالي الساعة الثانية والدقيقة 45 من بعد ظهر اليوم كان الأستاذ مطلق عبد الخالق الشاعر المعروف، متوجها إلى منزل الأستاذ وديع البستاني للإطلاع على مساعيه بشان المعتقلين في مخيم المزرعة. وكان يركب سيارة تكسي يقودها السائق يوسف بيدس، وعند وصول السيارة اتجاه الخضر حاولت تخطي خطة سكة الحديد للدخول إلى منزل الأستاذ البستاني، وكان قطار يافا متجها في منعطف هناك فداهم السيارة وحطمها، وأصيب الأستاذ المرحوم مطلق بعدة إصابات لا سيما في رأسه إذ انطبقت السيارة على بعضها وتكسرت أضلاع المرحوم وأصيب السائق بجراح مختلفة في رأسه، وفي حال توقف القطار، ونزل الموظف محمد حامد فحمل الجريحين إلى المستشفى بأول سيارة وجدها. وهناك فارق الأستاذ

مطلق الحياة، رحمه الله. وقد هرع الجيران إلى المصاب وإذ بهم يجدون أوراقه المبعثرة تحمل اسمه فعرفوه في الحال وعاد السيد محمد حامد موظف القطار يعرف اسمي المصابين فلما علم بالحقيقة أخذ بالبكاء لأنه كان ابن عمه. وفي المستشفى أبدى الدكتور حمزة عطفا كبيرا في إنهاء المعاملة بالتصريح بنقل الفقيد إلى مثواه الأخير واسفاه ! وقد تم دفنه في الناصرة في مسقط رأسه في 10 تشرين الثاني 1937 الساعة الثانية بعد الظهر.

3- أبو سلمى وإبراهيم طوقان يتحدثان عن الشاعر مطلق:

أبو سلمى يرثي شاعرنا بكلمات ملؤها الرقة، والحزن على فقدان شاعر شاب كان لا يزال في مقتبل العمر وريعان الشباب وقمة العطاء:

يا دمعة الشـعر على مطلـق　　على الشـباب الـناضـر المشـرق
عمـر كلـه الـزهـر يا لـيـتـه　　مـر على الـروض ولم يعبق(7)

ويفلسف أبو سلمى الحياة ويؤكد ما كان يؤمن به شاعرنا مطلق من أن الحياة عقيمة وتافهة وينوه بعبثية هذه الحياة:

مطلـق ما الـمرء سوى تائه　　يـجـول فـي الـيـم على زورق
المـوج من جانبـه غـاضـب　　والريـح إن تلعـب به يغرق(8)

يعتبر أبو سلمى الموت، والخلاص من متاعب هذه الدنيا تحررا وعتقا من ربقتها:

أنـت تحـررت ولكـنـنـا　　في القيـد يا مطـلـق لـم نطـلـق
إما حـيـاة مثلـمـا نشتهـي　　أو في ربى الخلـد غدا نلتقي(9)

وقع أبو سلمى تحت ذات المؤثرات التي خضع لها شاعرنا مطلق عبد الخالق، فكلاهما غنى للوطن، وترفع عن عقم الحياة، والتصق بهموم شعبه، والتحم بآمال بلده، فسوداوية الحياة وشؤمها رغم ثقلها عليهما لم تحل دون التعبير عن جوانب حياتيه أخرى زاخرة بالتفاؤل والخضرة والحب والغزل، فها هو الشاعر مطلق ينشد قائلا:

ما أجـمـل الـدنيـا　　فـي نظـر الشـاعـر

في جسمها العاري	وثوبها الساحر
في نهرها الجاري	وطيرها الصداح
وطيفها الساري	وزهرها الفواح(10)

أما الشاعر إبراهيم طوقان فعبر عن شديد أسفه لمصرع أخيه الشاعر بهذه الطريقة ألمؤله، فوجه كتابا يلفه الأسى والحزن، موجها إلى أخ الشاعر صبحي فيصف شاعرنا بأنه أخ وشاعر وأديب، وقد اعترف انه عرف شاعرنا من خلال نفثات شعره بأنه يتمتع بروح حساسة وقلب شاعر، فيشيد بما تولده الزمالة ونسبة الأدب من علائق وصلات روحية.

فيستشعر الواجب المقدس نحو الأدب والشعر ويؤكد إن الشاعر مطلق هو بلابل رياضها، فيتمنى لو تتاح له الفرصة ويتسع الوقت لتحضير كلمه شامله يتطرق بها إلى الشاعر مطلق إنسانا وأديبا وصحفيا، لكن التزاماته وواجباته اليومية تحول دون ذلك، ويشعر بأنه مقصر في هذه الناحية لان لمطلق عليه حق ويطلب المعذرة والعذر عند الكريم مقبول، فيعترف انه بفقدان مطلق خسر الأدب شاعرا متألقا وكوكبا من كواكب الشعر الوطني والإنساني، فرفع اكفه إلى العلي القدير أن يعوض الأدب والشعر عن الفقيد خيرا.

4- مطلق صحفيا:

كان صحفيا بارعا من اقدر الصحفيين، كان قلمه ملكا لرأيه، وكان رأيه ملكا لحياته وكانت حياته ملكا لامته وللحق وحده، كان يعد واحدا من أسرة جريدة الكرمل الغراء واحد أعضاء أسرة جريدة الدفاع الغراء، تولى تحرير جريدة "النفير" ردحا من الزمن وسرعان ما اشتهر في عالم الصحافة والأدب. وقد جمع إلى جانب صفاته الإنسانيه النبيلة كفاءة ممتازة في صناعة التحرير. وشاركت في تأبينه معظم الصحف العربية آنذاك: جريدة الكرمل الذي كان عضواً في أسرتها، جريدة اللواء، جريدة الصراط المستقيم، جريدة الدفاع الذي كان احد أعضاء أسرتها وهي أوسع الجرائد العربية انتشارا كتبت تقول: "أسرة الدفاع من محررين ومراسلين ووكلاء وعمال تتقدم بأصدق تعازيها لوالدي الفقيد وأهله وخلانه وشقيقه الكريم، سائله المولى عز وجل وعلا أن يلهمها ويلهمهم جميل الصبر والسلوان وخير العزاء أمين".(11)

5- أغراض شعره

كتب الشاعر مطلق عبد الخالق في جوانب حياتيه عديدة، كتب في الموت وعالجه بدقه وعمق وتطرق إلى الدنيا وهمومها ومشاكلها وآمالها، تحدث عن فلسفة الحياة وما توحيه للإنسان من ألام وأمال، كتب الشاعر أيضا الشعر الغزلي فأجاد مثلما أجاد في شعره الوطني والوجداني، كتب عن الحب، ويصبح للحب معنى أعمق وطعم ألذ ويبقى ولا يزول خصوصا إذا تحلى الجمال بالكرامة والحب بالعزة. كتب إلى العامل وحياه ومجد كده وسعيه من اجل حياة أفضل ملؤها العزة والكرامة، ثم يستعرض شعره حتى يصل إلى نتيجة مفادها بأنه شاعر متشائم، لم يعبأ بالحياة وبهجتها ورونقها، بل آثر الآخرة ونعيمها المقيم، كان دائما يتوق للقاء ربه خير له من البقاء في هذه الدار الفانية، كان يمقت الحياة ويعفها، احتقر المال وازدراه، وترفع عن عبادة المال لأنه دائما كان يقول إن أصل كل الشرور المال، فلم يشكل في حياته سوى وسيله للبقاء:

يا مـال آهٍ لعابـديك حيـاتهـم ولهـم- ومالـي- مـأكـل وشـراب
ولعابديك نضارهـم- واللـه لـي والحـق يـدعـمـه هـدى وصـواب
يا مال أنت أخـس شيء منزلا عنـدي وأنـت، كـما أراك تـراب
أنا للعلـي أرنـو فـمـالي مطمع فيك ومالك في حماي ركـاب(12)

6- شعره:

يقال إن الكاتب هو هذا الإنسان الواسع الإطلاع الذي يستطيع أن يكتب في كل المواضيع بخلاف المتخصص كالشاعر أو القصصي أو الناقد أو الباحث، فشاعرنا كان من ارق الشعراء مؤلفا بارعا، ومحاضرا فذا.

انعكست في شعره حماسة الشاب الغيور وحنكة الشيخ الوقور، كان شابا كثير الحماسة والتفكير، وهو متجدد في أرائه الفلسفية، وإشعاره الاجتماعية، كان شاعرا كثيرا ما يتحدث عن تفاهة الحياة ولذة الضجعة الأخيرة، وكان بتحدث عن الدار الفانية. كان ذا بصيرة نيرة تستشف الحجب فكان يرى الحياة والدنيا على حقيقتها العارية بدون هذا الزخرف الذي يخدع الكثيرين ويموه عليهم فلذلك كان يسمو بنفسه وروحه ويصيح قائلا:

أسـرار هـذي الحيـاة مغلقـة في الجـد مـهـذارة وفي اللعـب

انا نلاقي الهناء في حزن كما نلاقي الشقاء في طرب
والدهر تلهو بنا حوادثه ونحن فيه نغوص في ريب
واحسرتا للأنام من ضحك يتم مثل البكاء عن نصب(13)

إذا كانت رسالته رسالة حق وقوله الصدق فيهمس في إذن كل واحد قائلا:

نموت ولكننا يا أخي نحب الحياة ولا نعتبر
ونذهل عما وراء الحياة بما ينجلي من شتيت الصور
فنحسب أن الحياة الغنى وجاء عريض وظبي نفر
طيوف رغائبنا في الجسوم وأشباح شهواتنا والفكر
أيا جامع المال هذا الذي تجمع لا تبقي عليه الغبر
عواصف التقتير تجتاحه وعاصفة الموت تمحو الأثر
تفارق دنياك في حيرة على الذي أفنيت فيه العمر(14)

فقد احتقر الدنيا ولم يأبه بها، ووصفها بالجيفة ألنتنه، وحذر من التكالب عليها والانشغال بزخرفها كما سخر من عادات الناس وتقاليدهم في هذا السياق فنراه يقول:

يقولون عني فتى بائس يصور الشعر له ما استتر
فيرنو إليه رنو الحزين ويرتد عنه كليل البصر
يسخط في نفسه صاخبا على الناس يرمي شواظ الشرر
وما أنا يا قوم بالبائس الـ شقي بل الساخر المحتقر
وماذا تراها تكون الحياة لا غدو بها بائسا منكسر
بني الناس دنياكم جيفة وليس على أرضكم ما يسر(15)

إن شاعرنا لم يأسف على فراق هذه الدنيا وإن لم يكن من أهلها في شيء، وقد كان وهو فيها في عالم روحاني غير عالمها ولا شك أن التعجيل بالخروج منها كان من أمانيه، كان دائما يتحدث عن تفاهة الحياة ولذة الضجعة الأخيرة:

ما حياتي؟ تعب في ملل وهيام في قفار الأمل
يطلع الصبح، ويربد الدجى وأنا- من حيرتي – في خبل!

كلما جال بفكري خاطر　　بددته خشيتي من فشلي
كلما بش بوجهي "حاضر"　　ضاع في طياته" مستقبلي"
كلما أملت في شيء ثوى　　أملي في ضيقات السبل(16)

تحدث مطلق عن نفسه بهذه الأبيات الخالدات التي قالها بمناسبة وفاة المغفور له جلاله الملك حسين بن علي الهاشمي وكان عمره 16 سنه وهي منه واليه:

روح" الحسين" خلقت منا امة　　تزري بأهل الكفر والإشراك
سئمت حياة الهون واشتاقت إلى　　الموت الشهي ولذة الإهلاك
وسعت إلى الهيجاء لتدرك ثأرها　　وتلبي الداعي إذا ناداك(17)

لم يكن يطمح في الحياة بشيء إلا ليذوب ليضيء مملكة الشعر والخيال والجمال، ما سعى وراء المال بل كان يحتقره ويزدريه، ومن ترفع عن عبادة المال فقد ارتفع عن مستوى البشر حتى انه وهو موظف في البنك العربي لم يستطع إلا أن يظهر احتقاره للمال في قصيدة " يا مال ":

يا مال! إني في الأفق البعيد سحاب　　وعلى معالم صفحتيك ضباب
يا مال! بيتك والنواظر خشع　　طمعا، وبين العالمين حجاب
تبدو لهم، فإذا الحياة جميلة　　وإذا يا مال الحياة عذاب
والناس لو علموا الحقيقة، أدركوا　　يا مال انك ساحر كذاب(18)

المال سراب خادع. كم زلزل عروشا وأطاح باركان الصروح، والناس يلهثون وراء المال الذي سلبهم أسباب سعادتهم ونعيم حياتهم:

يا مال كم نثرت عليك جماجم　　وعليك كم – يا مال – طاح رقاب
وعلى أديمك كم صروح زلزلت　　أركانها، فإذا الصروح يباب
وعلى جحيمك كم ديار أحرقت　　في غفلة... فإذا الديار خراب
وعليك! كم فاضت عليك مدامع　　وذوت حشاشات، وسال لعاب
وتقلصت همم، وساخت أرجل　　ووهت زعامات، وذاب شباب(19)

فالمال، يوهم صاحبه بعلو المكانة ورزانة الموقع، وهو سلاح بيد الشيخ ليصبح شابا بقوة تأثير المال عليه، وأحيانا يعتري الشباب مصائب شتى بفضل تأثير المال السلبي عليهم وانخداعهم ببريقه المزيف، فشاعرنا مطلق يحذر من ذلك:

وبك اللئيم سما، وبرز خامـــل وتنازع العلم الكريم عـــذاب
وبك البصير غدا، وفيه عمايـــة يا مـال، والأعمـى يـرى ويهـاب
وبك الشيوخ بدوا وفيهم صبـوة يا مال من مرحي، وشاخ شباب(20)

ويضيف في هذا السياق ملخصا فكرته حول المال:

يا مال! ما ملكت يداك، ضلاله وجميع ما جمعت خلالك، عاب (21)

شاعرنا مؤمن وإيمانه عميق صادق، الله وكتابه دستوره في الحياة، فالله يسخر من الذين يسارعون في جمع المال، الذهب والفضة، ولا ينفقونها في طرق الخير والبر:

يا عابدي الذهب الخسيس، قلوبكم قـدت من الصخر الأصم، صـلاب
أعمـاركم تقضونـها في ذلـــة وكـزازة، وحيـاتـكـم أسـلاب
فتـرفقـا أعمـاركم مـوقـوتـة للأمـس؟ أمسكـم أسـى وتبـاب
الله يسـخـر منـكـم، وهيامـكـــم بالمـــال، والأبـرار والأربـاب
يا مـال آه، لعـابـديـك حيـاتهـم ولـهـم – ومـالـي– مأكـل وشراب
ولعـابـديـك نضـارهم – والله لـي والحـق يـدعـمـه هـدى وصـواب
والعيش في نظـري، حديث خرافـة ولانت "حلوى" والأنام ذباب(22)

ويلخص الشاعر موقفه من المال الذي بات معروفا، فالشاعر يسمو للعلا وصاحب المال ينحدر إلى أدنى المراتب:

يا مال! أنت أخس شيء منزلا عنـدي، وأنت، كما، أراك، تراب
أنا للعـلا أرنـو فما لـي مطمـع فيك، ومالك في حماي ركاب (23)

فالشاعر يخاطب المال ويزدريه، ويتوجه إليه ويحذره، ويخاطبه محذرا ومنذرا، فيوجه نداءً ساخطاً قاسياً لمن يؤمن بقوة المال على تحقيق السعادة في الحياة، ويقول لهم ما هو إلا سراب زائل فمعتنقه خاسر وتاركه رابح، فثقافة اللهث وراء المال مآلها للزوال، وثقافة المتمسك بقيم

الدين للخلود والبقاء. فهو شاعر اجتماعي ينصح قراءه وإفراد مجتمعه بان الله يسخر منكم إن قدستم المال وسعيتم لجمعه وتركتم دينكم وما ينطوي عليه من قيم إنسانية ومبادئ سامية تقود الإنسان للطمأنينة والراحة النفسية والسعادة.

المواضيع التي طرقها مطلق متعددة، وأكثر قصائده في التأملات النفسية ثم في الوطنية، وقد طغى شعره في التأملات النفسية على سائر شعره حتى عرف بذلك. معظم قصائده تمتاز بالاكتئاب والسوداوية كقوله من قصيدة بعنوان" هوان الحياة" :

تموت الحياة ويفنى العمر ونحن إلى الموت نمضي زمر
وترقد في حفرة مالها قرار... ونغدو بها كالحفر
ونضحي غذاء لدود الثرى وسخرية للقضا والقدر
ونمسي كأمس الذي يمحى ويدبر ... في حلة المحتضر(24)

ومن هذه التأملات أيضا قوله من قصيدة طويلة بعنوان " تأملات مبهمة":

تأملاتي تموج في عجب لله كم في الحياة من عجب (25)

وخير ما يمثل تشاؤمه وبغضه للحياة قوله:

أوثر الموت أثره لا تجارى وارى في الحياة داءً وبيلا
أموت ومالي في حياتي تعلة ولا فكرة أحيا لها وأدين
ألا أيها الموت الذي أنت وافد اشك أرى أم ما أراه يقين
وما كنت أخشى الموت لولا صحيفة لو انقلبت بيضاء ساد سكون
وفارقت الحياة،كم تمنيت بعدها وللموت مني في لهفة وحنين(26)

7– أما حبه لوطنه فكان يرى من الوفاء الذي هو سجيته وطبع عليه انه من الواجب أن يكون مخلصا له وان يدافع عنه بكل قواه، كان صادق الود نحو الأرض التي أظلته وترعرع تحت ظل سماءها وتنسم عبيرها وأطعمته من خيراتها، فلم ينكر هذا الجميل أبدا، فهذا هو الإخلاص الأكيد لا الزخارف المادية البالية التي يتكالب عليها الناس.

لذلك كانت تفيض نفسه حنانا وإخلاصا وتفانيا نحو هذا الوطن فيناجيه قائلا:

دمعـة يا عيـن اذرفـهـــا شـجنـا في السـر والـعلـن
لا تضنـي وأرفقـــي بفتـى بالحمى المنكـوب مفـتتـن
ارق قـــد حـار في وطـــن سـاغـب، حران، ممتهن
دمعـة بالـدم قـد مـزجـت فاستحالـت عبـرة الـزمـن
دمعـــة الـطـهـر لـحمتهـا وسداها الحب للوطن(27)

وهناك القصائد الكثيرة التي أرسلها عن هذا الوطن تفيض كلها وطنيه وإخلاصا وتنطوي على ارق وأعذب الشعر والعطف والإخلاص الأكيد:

وطـنـي، واللّـه اعـبـده وافـــديـه مـدى الـزمـن
بالـذي احـويـه من الـم والذي ألقـاه مـن مـحـن
بفؤادي، بالحشا، بدمي بـأمـانـي- بـلا ثمـن!..
مـــاؤه عـذب، وأربـعـــه غضه بالمنـــظـر الحســن
والنسيـم الطـلـق منتشيا بأريـــج الـزهـر ينعشـنـي
والمـواشـي في مـراتعـهـا ثرة بالصوف واللبـن(28)

أسهم الشاعر في نضال شعبه، فمن ذلك قصيدة ساخر يتهكم بها على بعض الأساليب التي كان تلجا إليها الزعامات التقليدية المتآمرة على مصالح الشعب فيقول بصوت ملؤه الغضب:

قـدمـتـم قـبـل أيـام مـذكـــره إلـى الحكومـة يا قـوم الزعامـات
يا ليت أنّا عرفنا ما يطـرزهـــا مـــن المعاني ومن سامي العبارات
رويدكم، لا تلـوموا إننـا بـشـــر مـــن التراب وانتم من السـمـاوات
ماذا جنيتم سوى إعراض أمتكم عنكم، وغير شماتات الحكومات(29)

8- إذا قرأت شعر مطلق، تجلت لك نفسه على حقيقتها لا يحجبها عنك حجاب، ذلك انه كان ينظر نظرا دقيقا في جوانب تلك النفس، ثم يصور ما يعتلج فيها من عواطف وخلجات، كأصدق ما يكون التصوير، وما كان يعينه على البراعة والصدق في التعبير، علم غزير بفنون الكلام وأساليبه وهذا علم كان نتيجة لإطلاعه الواسع على المآثر الادبيه الرفيعة، من قديمة

وحديثه، إلى جانب القرآن الكريم والحديث الشريف، كان له أيضا إلمام واسع في الأدب الغربي والعربي مما اكسبه قدرة على سبك المعاني وصياغة التعابير بصورة أخاذة ومؤثرة، وكان شاعرا لا يبارى ولا يضاهى وقد ترك من المخلفات الشعرية ما سيبقيه خالدا على مر الأيام والسنين.

نحب ونكره في لحظة ونشقى ونسعد في ثانيه
ونرتاب في الأمر حين اليقين ونوقن في الريبة الطاميه
ونأمل والبأس مستحكم ونيأس حين المنى راضية
وتضحكنا مبكيات الحياة ونبكي على الضحكة الداويه
مراد النفوس بلهنيه وكاس .. من الخمر أو غانية
وبعد النفوس، سنى حكمه وفلسفة فذة... عالية(30)

9– ولا ينسى مطلق العمال ودورهم في المجتمع فهم بناته وهم ركن الصناعة والزراعة والبناء.

إنما العامل امرؤ غاله غائل الغير
فيه ما فيك يا أخي من ميول ومن فطر
من عظام ومن دم من خيال ومن فكر
انه من مشاعر انه ليس من حجر(31)

العامل يكد ويتعب وتلحظ علامات الإعياء في مآقيه والدمع ينهمر كالشآبيب، حياة كلها ضجر وملل وبؤس وشقاء، جسمه نحيل وهزيل، تعلوه أمارات الفقر والعوز:

شارد اللب والفكر خاشع القلب والبصر
في حناياه شعلة تتلظى ... ولا تقر
في مآقيه دمعة كالشآبيب تنهمر
في ثنيات صدره زفرة الهم والكدر
في تضاعيف نفسه تنطوي عبرة العبر
هو للبؤس صورة ومن شجون الأسى صور
لا يرى في غضونه غير ما يبعث الضجر!(32)

10– اعتز شاعرنا بماضي أمته التليد، وتاريخها المجيد، فهتف لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، عمر بن الخطاب، الفاروق، فكان له مصدر فخر واعتزاز، وأثنى على عدله الذي يعتبر بالنسبة للشاعر معلما للبشرية، وقائدا لمنهجها الحر، فيشعر الشاعر بعزة الانتماء لهذا التاريخ.

صنو الرسول، تحية وسلام — عزت بك الأعراب والإسلام
يا ذا المهاب والوقار وعزة — وفتى حمي الأنف ليس يضام
فاروق، يا رمز العدالة والنهى — لك في القلوب محبة وغرام
يا أيها الرجل العظيم، وذكره — حفلت به الأحقاب والأعوام
وافى على جمل اجب وخادم — لم تثنه الأوصاب والآلام
ما اعدل الفاروق يمشي خاشعا — والرمل– لا ظهر البعير — سنام
عمر العظيم ألست اعدل فاتح — شهدت بعفة نفسه الأقوام(33)

ثم رثا الملك فيصل حين وافته ألمنيه، مشيدا بدوره الريادي، وجبروته وتفانيه نحو شعبه وأمته، فهو جدير بالاحترام والتقدير والتخليد:

وافيصلاه القلب منفطر — والدمع مسفوح... ومنهمر
الله في آياته عجب — والدهر في طياته عبر
الله! ما الدنيا وفتنتها؟! — ما الدهر؟ بالمقدور؟ ما القدر
يا فيصل الجبار! معذرة — أنا — ورب البيت نعتذر
لو كنت تفدى " محبتنا" — يفديك فينا السمع والبصر
نفديك بالأرواح لا كذب — في القول– لا والله ! أو زور
آل الحسين الله يكلؤكم — أضنتكم الأحداث والغير(34)

ثم كتب إلى روح جلاله الملك علي، معددا مناقبه ومبينا مدى فداحة الخسارة التي حلت بالأمة العربية اثر فقد جلاله الملك علي:

رزؤنا في الهاشميين ضروب — زلزلت من هولها صم الجبال
فيصل غاب ومن قبل حسين — والأمير شاكر، أسد النضال

وأخيـرا قـد رزئنـا بعلـــي المليك المرتجى سامي الفعـــال
النقي طاهر القلب، ومـــن ذا كعلـي في المـزايـا والخصـــال
يا مليكا غادر الدنيـا ليـرقـــى جنة الخلد، وفردوس الجمال(35)

11- الغزل

لم يكتب شاعرنا للوطن والمواطنين، أو عظماء التاريخ وحدهم بل تجاوز ذلك إلى أمور دنياهم، ومشاكلهم، وعواطفهم، وأحاسيسهم، فقد افرد مساحة كبيرة للشعر الغزلي وقصائد الحب، كتب إلى الحبيب وكبرياء الحب.

طيـف الحبيـب ولهفـة المـحـزون أنـي احـن إلـيـك كـل حـنيـن
تهفـو إليك جـوانحي وجـوارحـي وتذوب فيـك عواطفـي وشجوني
وتهيجني الذكرى فيرقص خاطري ويـرف حـولـك رفـة المجنـون
ويهزنـي شـوقـي إلـيـك فـانـثـنـي متلهفا والدمع مـلء عيوني(36)

ثم يؤكد على معنى الحب برقة المشاعر وعذوبة الألفاظ، ويترجم آهاته، وأناته ومعاناته إلى واقع يهزه ويهيجه، فيعي معنى الحب الحقيقي الذي يعتبر نفسه فارسا لميدانه:

ما أنت حتى تسفكي ادمعـي أو تعبثـي بالشـاعـر المـبـدع؟
وما تـرى ألقـاه لـو لـم تـعـي قولـي وإشـعـاري ولم تسمعـي؟
وهـل إذا أعـرضـت تلـقـيننـي أغـوص في الأنـات والادمـع
واسهـر الليـل أليـف الـدجـى حيران دامي القلب في مضجعي؟
عينـاك يا هـذي شعاع الضحـى ووجهـك الـزاهـي سـنـا الأربـع
وانفـك الاقـنـى بـه فـتنـه! تدب في الأحشاء والأضلع(37)

ثم يواصل تحديه بقوة وعنفوان الشاب الواعي الموقن لكنه ما يدور في قلبه وصدره:

هـل خلت يا هـذي باني فتـى أذوب كالشـمـعـة إن تسطعـي
هيهات ذاك العهـد شيء مضى ولـم اعـد بالعاشـق الطـيـع؟

حسبت أن الغيـد رسـل السـما وكـنــت في الحسـبان كـالامـع
وخلتهن الـزهـر يحيـى المـنـى فإذ بهن الشوك في البلقع(38)

وختاما، أود الإشارة هنا معترفا أنني لم أعط الشاعر حقه من الدراسة والبحث والتنقيب والتحليل، لأنه شاعر رغم قصر عمره ملأ الدنيا أدبا وشعرا، ولكنه لم ينشغل الناس بإنتاجه، لم يتطرق الكتاب أو الباحثون إلى حياته، وشعره، إلى إنسانيته ووطنياته، فكل ما كتب عنه حتى الآن شيء يسير يكاد لا يذكر، لم يتناول احد شعره بالتحليل والوقوف على أسرار نفسية هذا الشاعر الإنسان الغريب.

فقد طغى عليه شعراء عصره مثل أبي سلمى، وإبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود، فكتب الباحثون والنقاد عن غيره وتركوه في الظل، رغم إن إنتاجه الأدبي غزير يستحق أن يتناوله أصحاب الاختصاص وأن تعّقد حول هذا الإنتاج أيام دراسية ومؤتمرات لإعلاء ذكره وإعطائه المكانة اللائقة به.

أسهم في نضال قومه، وشارك في الحياة العامة والحركات الوطنية، كتب في موضوعات كثيرة ومعظم قصائده في السياسة والاجتماع، وفي الغزل، والرثاء والوصف، فنظرته للحياة كانت سوداويه وكئيبة .

حين نعود بالذاكرة إلى ما يزيد على سبعة قرون، يتوجب علينا أن نبحث عن ترجمة مطلق عبد الخالق احد شعراء فلسطين الذين كرسوا طاقاتهم الإبداعية للتعبير عن المأساة التي ألمت بالبلاد أيام الانتداب البريطاني . كرّس مطلق فكره ونتاجه شعرا ونقدا للتعبير عن أبعاد هذه الثورة الشعبية (الثورة المعروفة بثورة الـ 36)، وعن معاناة الشعب من خلال كفاحهم ونضالهم ضد المستعمر البريطاني .

ينبغي أن نعي جيدا الدور البارز الذي لعبه الشاعر في حياة أمته، وشعبه، وأن نخلد ذكراه بإعادة طباعة إنتاجه الأدبي والفكري وأن نمنحه مساحة واسعة من الاهتمام به وبإبداعاته علنا نفيه جزءا من حقه علينا.

الهوامش

1- وردت في كلمة رثاء للأديب السيد عبد الرحيم الشريف (صديق الشاعر) التي قالها في ذكرى الأربعين، شهر تشرين الثاني 1937.

2- عبد الخالق، مطلق. ديوان **الرحيل**. قصيدة "هوان الحياة"، ص 175.

3- جريدة **الكرمل**، تشرين ثاني،1937.

4- جريدة **الدفاع**، تشرين ثاني، 1937.

5- عبد الخالق، مطلق. ديوان **الرحيل**. قصيدة"على شاطئ الحياة"، ص 115.

6- نشرت هذه المعلومة في ملحق ديوان **الرحيل**، ص 181.

7- قصيدة "يا دمعة الشعر" ألقاها الشاعر أبو سلمى في ذكرى وفاة الشاعر مطلق عبد الخالق.

8- قصيدة "يا دمعة الشعر" ألقاها الشاعر أبو سلمى في ذكرى وفاة الشاعر مطلق عبد الخالق.

9- قصيدة "يا دمعة الشعر" ألقاها الشاعر أبو سلمى في ذكرى وفاة الشاعر مطلق عبد الخالق.

10- عبد الخالق، مطلق. ديوان **الرحيل**. قصيدة " في روضة الدنيا"، ص151.

11- **ن.م.** نعي الشاعر، ص185.

12- **ن.م.** قصيدة " يا مال"، ص16.

13- **ن.م.** قصيدة " تأملات مبهمة"، ص84.

14- **ن.م.** قصيدة "هوان الحياة"، ص175.

15- **ن.م.** قصيدة"هوان الحياة"، ص177.

16- **ن.م.** قصيدة"حياتي"، ص93.

17- **ن.م.** قصيدة" إلى روح الحسين"، ص170.

18– **ن.م.** قصيدة " يا مال"، ص16.

19– **ن.م.** قصيدة " يا مال"، ص16.

20– **ن.م.** قصيدة " يا مال"، ص16.

21– **ن.م.** قصيدة " يا مال"، ص19.

22– **ن.م.** قصيدة " يا مال"، ص19.

23– **ن.م.** قصيدة " يا مال"، ص19.

24– **ن.م.** قصيدة "هوان الحياة"، ص175.

25– **ن.م.** قصيدة " تأملات مبهمة"، ص82–85.

26– **ن.م.** قصيدة " هوان الحياة"، ص175.

27– **ن.م.** قصيدة " دمعة على الوطن"، ص23.

28– **ن.م.** قصيدة "دمعة على الوطن"، ص23.

29– **ن.م.** قصيدة " مذكرة"، ص60.

30– **ن.م.** قصيدة " طلاسم"، ص32.

31– **ن.م.** قصيدة " العامل"، ص 164.

32– **ن.م.** قصيدة " العامل"، ص 163.

33– **ن.م.** قصيدة "عمر العظيم"، ص 107.

34– **ن.م.** قصيدة "زفرة على فيصل"، ص 132.

35– **ن.م.** قصيدة "إلى روح جلالة الملك علي"، ص134.

36– **ن.م.**، قصيدة "طيف الحبيب"، ص 73.

37– **ن.م.** قصيدة "كبرياء الحب"، ص75.

38– **ن.م.** قصيدة "كبرياء الحب"، ص 75.

ببليوغرافيا

1- عبد الخالق، مطلق. ديوان الرحيل. بيروت: دار الأحد، 1938. (اشرف على جمعه أخوه صبحي عبد الخالق).

2- صدوق، راضي. شعراء فلسطين في القرن العشرين. د.م: د.ن، 2000.

3- موسوعة إعلام الأدب العربي في العصر الحديث. مج2. د.م: مكتبة كل شيء، 1998.

4- ضجعة الموت. ديوان شعر. د.م: د.ن، د.ت.

5- حتمية الموت. د.م: د.ن، 1936م.

6- عبد الخالق، مطلق. خواطر وألام. مقالات أدبية وتأملات نفسية. د.م: د.ن، 1938.

7- قبش، أحمد. تاريخ الشعر العربي الحديث. بيروت: مطبعة دار الجيل، 1996.

8- إبراهيم، مؤيد. "ذكريات أدبية ما قبل 1948" المواكب 1، 2 (كانون الثاني/شباط 1984): 18-24.

תקציר:

המשורר מוטלק עבדולח'אלק, אשר נולד בנצרת, נחשב למשורר שחולל שיח ציבורי הודות למיומנותו הפיוטית והנושאים שהתייחס אליהם בשירותו.

הוא נפטר צעיר בגיל 27, ולמרות תקופת חייו הקצרה הצליח לדבר ללבבות עמו על כל גווניו. דיבר על האומה הערבית ובעיותיה, על מרד הפלסטינים נגד הבריטים בשנת 1936, כתב שירה על בעיות החברה והפילוסופיה מאחורי החיים.

הוא חי בתקופה קשה מבחינה פוליטית, חברתית וכלכלית, ובכל זאת השכיל לפלס לו דרך ולתאר את הבעייתיות בהיבטים האלה ובמיוחד ההיבט הלאומי והפוליטי.